الصباح الإسلامية
09
العدد 2460 - السنة التاسعة
الأحد غرة شعبان 1437 - الموافق 8 مايو 2016
Sunday 8 May 2016 - No.2460 - 9th Year
إعداد : ياسر السيد

كان من قوم موسى فبغى عليهم

قارون فضل الكنوز والطغيان .. على البر والإيمان

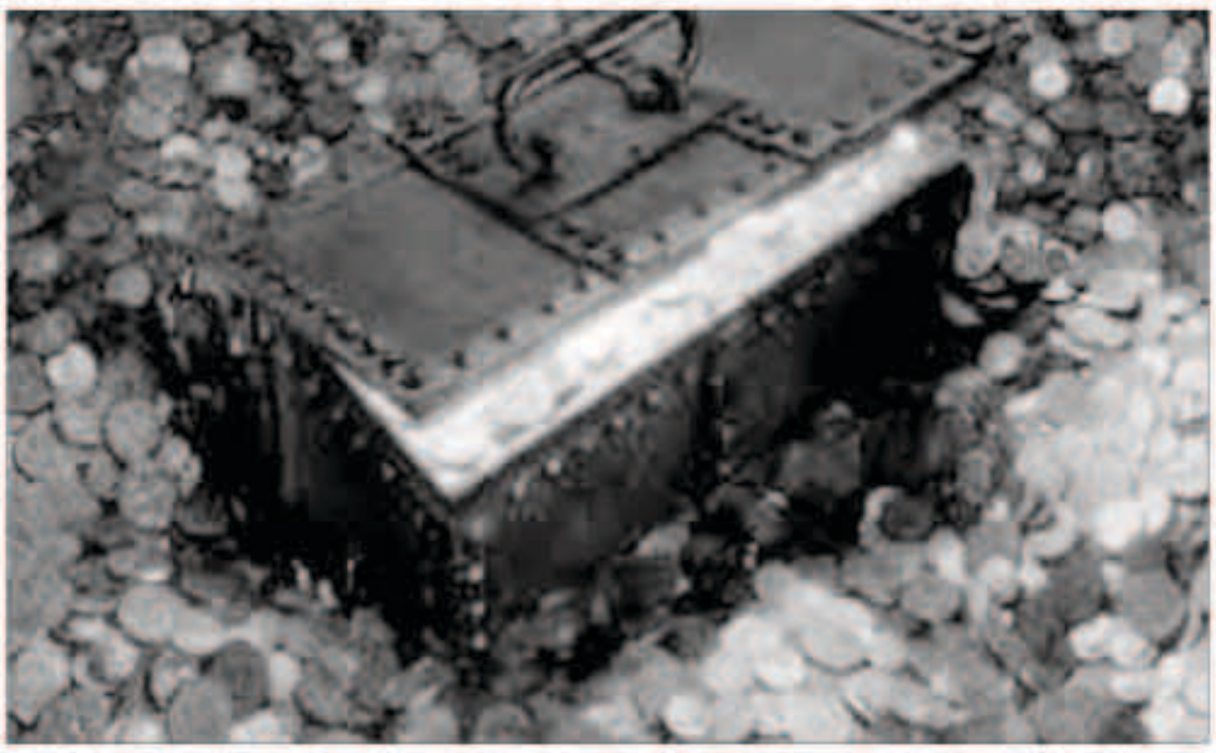

قال الله تعالى : إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون نلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين [القصص : 76 – 83] . قال الأعمش : عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كان قارون ابن عم [ص: 202] موسى . وكذا قال إبراهيم النخعي ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب ، وقتادة ، ومالك بن دينار ، وابن جريج ، وزاد فقال : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث . قال ابن جريج : وهذا قول أكثر أهل العلم: أنه كان ابن عم موسى ، ورد قول ابن إسحاق إنه كان عم موسى . قال قتادة : وكان يسمى المنور: لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق ، كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله . وقال شهر بن حوشب : زاد في تيابه شبرا طولا: ترفعا على قومه . وقد ذكر الله تعالى : إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه كانت كنوزه: حتى إن مفاتيحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد ، وقد قيل : إنها كانت من الجلود ، وإنها كانت تحمل على ستين بغلا . فالله أعلم . وقد وعظه الناصحاء من قومه: قائلين : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين أي: لا تبطر بما أعطيت ، وتفخر على غيرك . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة بقولون : لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة ، فإنه خير وأبقى ، ومع هذا ولا تنس نصيبك من الدنيا أي: وتناول منها بمالك ما أحل الله لك ، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ، وأحسن كما أحسن الله إليك أي: وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض أي: ولا تسئ إليهم ، ولا تفسد فيهم فتقابلهم ضد ما [ص: 203] أمرت فيهم ، فيعاقبك ويسلبك ما وهبك . إن الله لا يحب المفسدين فما كان جوابه قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة ، إلا أن قال إنما أوتيته على علم عندي يعني : أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ، ولا إلى ما إليه أشرتم: فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه ، وأني أهل له ، ولولا أني حبيب إليه ، وحظي عنده ، لما أعطاني ما أعطاني . قال الله تعالى ردا عليه ما ذهب إليه : أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون أي: قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فلو كان ما قال صحيحا لم نعاقب أحدا ممن كان أكثر مالا منه ، ولم يكن ماله دليلا على محبتنا له ، واعتنائنا به ، كما قال تعالى : وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا [سبأ : 37] . وقال تعالى : أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون [المؤمنون : 55 ، 56] . وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله : إنما أوتيته على علم عندي .

وأما من زعم أن المراد من ذلك ، أنه كان يعرف صنعة الكيمياء ، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم ، فاستعمله في جمع الأموال ، فليس بصحيح؛ لأن [ص: 204] الكيمياء تخييل وصبغة لا تحيل الحقائق ، ولا تشابه صنعة الخالق ، والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به ، وقارون كان كافرا في الباطن ، منافقا في الظاهر ، ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير ، ولا يبقى بين الكلامين تلازم ، وقد وضحنا هذا في كتابنا « التفسير » ولله الحمد .

قال الله تعالى : فخرج على قومه في زينته ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم؛ من ملابس ، ومراكب ، وخدم ، وحشم . فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا ، تمنوا أن لو كانوا مثله ، وغبطوه بما عليه وله ، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح ، الزهاد الألباء ، قالوا لهم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى ، وأجل وأعلى ، قال الله تعالى : ولا يلقاها إلا الصابرون أي: وما يلقى هذه النصيحة ، وهذه المقالة ، وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية ، عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية ، إلا من هدى الله قلبه ، وثبت فؤاده ، وأيد لبه ، وحقق مراده ، وما أحسن ما قال بعض السلف : إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

قال الله تعالى : فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين [ص: 205] لما ذكر تعالى خروجه في زينته ، واختياله فيها ، وفخره على قومه بها ، قال : فخسفنا به وبداره الأرض .

كما روى البخاري من حديث الزهري ، عن سالم ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : بينا رجل يجر إزاره ، إذ خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة . ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد ، عن سالم ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه .

وقد ذكر عن ابن عباس ، والسدي ، أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا ، على أن تقول لموسى ، عليه السلام ، وهو في ملأ من الناس : إنك فعلت بي كذا وكذا ، فيقال : إنها قالت له ذلك فارعد من الفرق وصلى ركعتين ، ثم أقبل عليها فاستحلفها : من ذلك على ذلك ، وما حملك عليه؟ فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك ، واستغفرت الله ، وتابت إليه ، فعند ذلك خر موسى لله ساجدا ، ودعا الله على قارون ، فأوحى الله إليه : إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره ، فكان ذلك . فالله أعلم . وقد قيل : إن قارون لما خرج على قومه في زينته ، مر بجحفله ، وبغاله ، وملابسه ، على مجلس موسى ، عليه السلام ، وهو يذكر قومه بأيام الله ، فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه ، فدعاه [ص: 206] موسى ، عليه السلام ، فقال له : ما حملك على هذا؟ فقال يا موسى ، أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة ، فلقد فضلت عليك بالمال ، ولئن شئت لتخرجن فتدعون علي ، ولأدعون عليك ، فخرج ، وخرج قارون في قومه ، فقال له موسى تدعو أو أدعو؟ قال : أدعو أنا . فدعا قارون ، فلم يجب في موسى ، فقال موسى : أدعو؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم مر الأرض فلتطعني اليوم . فأوحى الله إليه : إني قد فعلت . فقال موسى : يا أرض خذيهم . فأخذتهم إلى أقدامهم ، ثم قال خذيهم . فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم ، ثم قال : اقبلي بكنوزهم وأموالهم . فأقبلت بها ، حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده ، فقال : اذهبوا بني لاوي . فأسنوت بهم الأرض . وقد روي عن قتادة أنه قال : يخسف بهم كل يوم قامة ، إلى يوم القيامة . وعن ابن عباس أنه قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة . وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة ، أضربنا عنها صفحا وتركناها قصدا .

وقوله تعالى : فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين لم يكن له ناصر من نفسه ، ولا من غيره ، كما قال : فما له من قوة ولا ناصر [الطارق : 10] . ولما حل به ما حل من الخسف ، وذهاب الأموال ، وخراب الدار ، وهلاك النفس والأهل والعقار ، ندم من كان تمنى مثل ما أوتي ، وشكروا الله تعالى الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ، ولهذا قالوا : لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون [ص: 207] وقد تكلمنا على لفظ : « ويك » في « التفسير » . وقد قال قتادة : ويكأن بمعنى ألم تر أن . وهذا قول حسن من حيث المعنى ، والله أعلم . ثم أخبر تعالى تلك الدار الآخرة وهي دار القرار . وهي الدار التي يغبط من أعطيها ، ويعزى من حرمها ، إنما هي معدة للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر ، والفساد هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية؛ من أخذ أموال الناس ، وإفساد معايشهم ، والإساءة إليهم ، وعدم النصح لهم ، ثم قال تعالى : والعاقبة للمتقين .

وقصة قارون هذه ، قد تكون قبل خروجهم من مصر: لقوله : فخسفنا به وبداره الأرض فإن الدار ظاهرة في البنيان ، وقد تكون بعد ذلك في التيه ، وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام ، كما قال عنترة :

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن: قال الله تعالى : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب [غافر : 23 ، 24] . وقال تعالى في سورة « العنكبوت » بعد ذكر عاد وثمود : وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون [العنكبوت : 39 ، 40] . [ص: 208] فالذي خسف به الأرض قارون ، كما تقدم ، والذي أغرق فرعون ، وهامان ، وجنودهما ، إنهم كانوا خاطئين .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ، حدثنا كعب بن علقمة ، عن عيسى بن هلال الصدفي ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه ذكر الصلاة يوما ، فقال : من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها ، لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف انفرد به أحمد ، رحمه الله .

الصراط المستقيم .. أقصر الطرق لرب العالمين

قيل: إنه القرآن، وقيل: الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده، وقيل: الإسلام، قال ابن القيم: «والقول الجامع في تفسير الصراط المستقيم هو الطريق الذي نصبه الله لعباده على ألسنة رسله وجعله موصلا لعباده إليه ولا طريق لهم سواه، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسله بالطاعة، وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله وترضيه بجهدك فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه ولا تكون إرادة إلا متعلقة بمرضاته وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها».

فالصراط المستقيم:

-1 هو الصراط الذي يرجوه كل مسلم يسأل الله في كل صلواته الفريضة والنافلة أن يرزقه إياه قائلا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6]. ثم بين سبحانه وتعالى وصف هذا الصراط في الآية التي تليها: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:7]. حتى يعلم أن الصراط المستقيم إنما هو سبيل المؤمنين وليس سبيل المغضوب عليهم ولا هو سبيل الضالين.

بل وهناك من الملاحظات الهامة في هذا السياق أن يضاف الصراط تارة إلى الله وتارة إلى العباد ويذكر مفردا معرفا باللام تارة وبالإضافة تارة فقال: «أما إضافته إلى الله فلأنه هو الذي شرعه ونصبه، وأما إضافته إلى العباد فلأنهم أهل سلوكه، وأما ذكره مفردا معرفا باللام تارة وبالإضافة تارة فلإفادة تعيينه واختصاصه وأنه صراط واحد بخلاف طرق أهل الضلال».

-2 ولكونه وصية الله إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام حيث قال سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:43]، ووصية الله إلى الناس باتباع هذا الصراط المستقيم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:153]، وهنا تجدر الإشارة إلى ما نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه في توضيح وصية النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام:151]، إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:153] الآية».

يعني: هذه الثلاث الآيات التي ذكرت من آخر سورة الأنعام، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه هو من أكابر الصحابة وعلمائهم، وقد أمّره عمر رضي الله عنه على الكوفة حاكما وقاضيا ومعلما فيها، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة رضوان الله عليه. وقوله: «من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام:151] إلى آخر الآيات».

يقول: كأن هذه وصية كتبها الرسول وختمها بخاتمه، فلم تخط ولم تخرج، فالمعنى: أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصى بمضمون هذه الآيات؛ لأنه وصى بكتاب الله، ولم يوص الرسول صلى الله عليه وسلم وصاة إلى أحد، وإنما كان يوصي بكتاب الله كما جاء في خطبته التي خطبها في حجة الوداع التي ودع الناس فيها؛ لأنه علم قرب أجله فقال: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله». فحث على الأخذ بكتاب الله والتمسك به، هذه هي وصيته، أما الزعم بأنه وصى إلى شخص معين -لا سيما بالخلافة- فهذا كذب وافتراء على الله وعلى رسوله، وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما كان في أثناء مرضه قال: «ائتوني أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده». ثم اختلفوا، فمنهم من قال: «ائتي به». ومنهم قال: «لا تأتي به». ثم قال: «قوموا عني».

ولو كان هذا الكتاب متعينا لأمرهم أن يبايعوه على الآيات التي في آخر سورة الممتحنة، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ [الممتحنة: من الآية 12] إلى آخر الآية، وأنهم بايعوه عليهن، وهذا الحديث مثله، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يوصي بالآيات الجوامع التي فيها الأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة غيره، وكذلك الالتزام بما جاء به وعدم الإخلال به، فكان يوصي بهذا ويعد الإنسان عليه بالجنة إذا وفى.

كما أنه لما قال له معاذ: «يا رسول الله! أخبرني بعمل يدخلني الجنة، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله» ثم قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، فذكر له هذه الأمور الخمسة فقط، وهذه هي التي يدخل بها الإنسان الجنة، وليس للجنة ثمن غيرها، ولكن الإنسان قد لا يدري هل جاء بها على الوجه المطلوب أو أنه أخل بها؟ ولا أحد يجزم جزما بأنه جاء بها على الوجه الذي أراده الله، بل لابد أنه قصر فيها: في فعلها أو في صفاتها أو في غير ذلك، ولهذا من تيقن أن الله قبل منه عملا فهو من السعداء، كما قال عبد الله بن عمر: «لو أعلم أن الله قبل مني حسنة للمتيت الموت»؛ لأن الله جل وعلا أخبر أنه إنما يقبل من المتقين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:27].

قال الشارح: «قلت: ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص أمته إلا بما وصاهم الله تعالى به على لسانه، وفي كتابه الذي أنزله: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:89]، وهذه الآيات وصية الله تعالى ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم»، يعني أنه في آخر كل آية يقول: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام:151] فالوصية هي: الأمر المؤكد بأن يؤخذ به ولا يخل به، فهذه وصية الله، والرسول صلى الله عليه وسلم وصى بما وصى به ربه جل وعلا.

كتابته ما تركه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن هذا بينته الرواية الأخرى، فإنه قال لـ عائشة رضي الله عنها: «ادعي لي أباك وأخاك لأكتب له كتابا» حتى لا يختلف الناس ويقول قائل: «لو كان فلان لو كان فلان». ثم قال: «يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر». فترك الكتاب؛ لأنه علم أن ترك الأمة بلا كتابة ولا وصية إلى أحد أنفع وأفضل، وإذا اجتهدوا ونظروا في اجتهادهم لا يخرجون عن الحق، وقد علم علما يقينيا أن الرسول صلى الله عليه وسلم منذ ترك الصلاة بالناس أمر أبا بكر أن يصلي بهم، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

فراجعته عائشة رضي الله عنها، وقالت: «يا رسول الله! إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قام مقامك لا يستطيع أن يُسمع الناس من البكاء، فلو أمرت عمر بن الخطاب أن يصلي بالناس». فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». فذهبت عائشة وقالت لـ حفصة: «اذهبي وقولي له كذا وكذا». فذهبت حفصة وقالت له ذلك، فغضب صلى الله عليه وسلم وقال: «إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس». فبقي أبو بكر رضي الله عنه يصلي بالناس طوال مرضه صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر معلوم، ولهذا قال الصحابة: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضيه لديننا فنحن نرضاه لدنيانا».

فالمقصود: أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يوص إلى أحد، وإنما وصى بكتاب الله، وقول ابن مسعود: «من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه -كأنه يقول: هذه وصية كتبت ثم ختمت فلم تفتح- فليقرأ هذه الآيات». هذا في الواقع ليس خاصا بهذه الآيات، ففي كتاب الله كثير من أمثال هذه الآيات الثلاث المحكمات، ثم إن الشيء الذي يحتاج إلى بيان وإيضاح في كتاب الله قد وضحه الرسول صلى الله عليه وسلم وبينه، ولم يترك الناس في التباس أو اشتباه، ولهذا كان يقول لهم في آخر خطبة خطبها في الجمع الكبير يوم عرفة وكذلك يوم النحر: «إنكم مسئولون عني فماذا أنتم قائلون؟». هكذا كان يقول لهم، فصاروا يقولون: «نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة». فصار صلى الله عليه وسلم يرفع إصبعه إلى السماء ثم ينكسها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» يعني: اشهد عليهم أنهم شهدوا لي بالبلاغ.

وكثيرا ما كان إذا بلغ الشيء قال: «اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم قد بلغت؟ اللهم فاشهد» يستشهد ربه؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:67]. فإذا كلف الله جل وعلا عبدا في إبلاغ الرسالة ثم توقف عنها فمعنى هذا أنه امتنع، وقد حمى الله جل وعلا رسوله من ذلك وصانه، فكان يحرص كل الحرص على التبليغ.

ولهذا يقول العلماء على هذه الآية: كل ما لم يقله الرسول ويأمر به ويفعله فهو باطل بدليل هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:67]؛ لأنه لو كان مما أنزل إليه لبلغه، فإذا لم يبلغه فهو باطل مردود على صاحبه، والمقصود أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ البلاغ المبين ولم يترك شيئا، حتى إنه لما نزل عليه صلوات الله وسلامه عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:214].

كأنه خشي أن يكون قصر، فبادر مسرعا إلى أقرب جبل قريب منه وهو جبل الصفا فصعد عليه وجعل يرفع صوته ويهتف: «وا صباحاه!». وكانت هذه عادة العرب إذا رأى أحدهم عدوا قريبا ولا يمكنه أن يخبر قومه يصيح ويقول: «وا صباحاه» يعني: صبحكم العدو فصاروا يهرعون إليه من كل جانب، والذي لم يستطع أن يأتي إليه أرسل من يأتيه بالخبر؛ لأن هذا أمر مهم جدا، فلما اجتمعوا عنده قال: «يا معشر قريش! أرأيتم لو أخبرتكم أن خلف هذا الجبل جيشا يريد أن يغير عليكم أكنتم مصدقي؟». قالوا: «نعم، ما جربنا عليك كذبا». فقال: «أنقذوا أنفسكم من النار، فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فجعل يعم ويخص، حتى قال صلوات الله وسلامه عليه: «يا فاطمة بنت محمد! أنقذي نفسك من النار، لا أغني عنك من الله شيئا». فلم يترك شيئا إلا وبينه لسلامة، ولم يترك مجالا يقوله ويبلغه إلا قام به في تبليغ شرع الله جل وعلا. ولهذا صار كثير من الكفرة والفجرة يرمونه بالجنون، ويقولون إنه مجنون من أجل هذا.

فالمقصود: أنه ليس للإنسان عذر بعد بلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما عليه أن يهتم بأمر دينه، أن يعيره شيئا من الاهتمام، ولا يجوز أن تكون دنياه أكثر اهتماما عنده من أمر دينه؛ فإنه إذا كان كذلك يوشك أن يهلك. معنى الوصية التي تضمنتها الآيات الثلاث التي في سورة الأنعام قال الشارح رحمه الله: «وهذا الأثر رواه الترمذي وحسنه، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني بنحوه».

وقال بعضهم: معناه: من أراد أن ينظر إلى الوصية التي كأنها كتبت وختم عليها، فلم تغير ولم تبدل فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ [الأنعام: من الآية 151] إلى آخر الآيات، شبهها بالكتاب الذي كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص إلا بكتاب الله، كما قال -فيما رواه مسلم-: «وإني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله». وقد روى عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ائتوني أبايعكم على هؤلاء الآيات الثلاث»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: من الآية 151]، حتى فرغ من الثلاث الآيات، ثم قال: «من وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه» (رواه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه، ومحمد بن نصر في الاعتصام)».

وهذا أيضا كان يتكرر من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاء أيضا عن عبادة بن الصامت أنه